

الغيرة

الغيرة كداء السرطان، تغزو فريستها وتتغلغل في شخصيتها، حتى لا تدع جانبًا من جسم صاحبها أو عقله يخلو منها.. ومتى علقت بذهن إنسان فهيهات أن يفلت من قبضتها الفولاذية، لأنها تبقى جاثمة فوقه ليلاً ونهاراً ولا تنفك تهمس في أذنيه موحية إليه بالشكوك السامة، فتمنعه الراحة وتحرمه سلامة العقل. إن الغيرة مصدر الكثير من التعب التي تستولي على أعصاب المصاب بها.

ومن طبيعة الغيرة أنك لا تستطيع مهادنتها أو ملاقاتها في منتصف الطريق لأنها لا ترضى الأنصاف ولا تقنع إلا بالنصيب كاملاً غير منقوص وليس في وسعك مداعبتها أو الضحك عليها وإذا سخرت منها تسربت إلى الأعماق وبات خطرهما على العقل أشد مما كان. ولا واقع أن الفرق بين الرجل الذي يعتقد أنه السيد المسيح فتمكنت منه هذه الفكرة والرجل الذي يعتقد أن كل موظف جديد في المكتب الذي يعمل فيه يحاول أن يحل محله.. الفرق بين هذا وذاك درجة من درجات الجنون!

ما هي الغيرة؟..

الغيرة عارض من أعراض الخوف والرجل الذي يشعر بالاطمئنان والأمن في قرارة نفسه، لا يمكن أن يُبتلى بداء الغيرة أو أن تعرف الغيرة إليه سبباً. قد تحسد أحد الناس لأنه أسعد منك حظاً وأكثر استمتاعاً بمزايا أنت محروم منها أو يبدو على الأقل كذلك، بيد أن هذا ليس المقصود من الغيرة.

الغيرة دليل المرض؛ لأن العقل الذي تلازمه معهم بالخوف والوجل وعرضة للإصابة بحالة خبيثة من المرض تفتك بشخصيته، ودعني أكرر القول- وإن اتهمت بعيب التكرار- إن الخوف أو توقع الخطر أول دليل على التعب الذي يصاب به الجهاز العصبي.

ويأتي الخوف أو توقع الخطر في بادئ الأمر في صورة غامضة ينقصها الوضوح والتكوين.. يشعر صاحبها بعدم الطمأنينة ولا يعرف سبب ذلك، اللهم إلا إذا فهم جيداً النظريات التي جاءت في هذا الكتاب أو المؤلف الذي سبقه (لا تخف).

الغيرة إحساس

الكثيرون من الكُتّاب الذين عالجوا هذا الموضوع يعزّون الغيرة إلى وجدان هدام شديد الوطأة في النظام الفكري ويشجع هؤلاء الكُتّاب المرضى على البحث عن جرثومة داء الغيرة والتنقيب عنها في الأفكار التي

تشغل بالهم. وفي اعتقادي بعد خبرتي الطويلة في علاج هذا الداء أن الباحث في أفكاره عن مصدر الغيرة (كمتطلب الماء في جذوة نار). إنني أقرر عن يقين أن الغيرة لا علاقة لها بالنظام الفكري ولكنها كسائر أنواع الخوف ترجع إلى شعور في جسم صاحبها.

إن المرأة أو الرجل الغيور يشعر بأحاسيس عنيفة تندفع سارية في جسمه دلالة على خوفه وعدم اطمئنانه، وكلما اشتدت هذه الأحاسيس اشتد خوفه وعدم اطمئنانه تبعاً لذلك. فإذا كنت لا تفهم طبيعة هذا الشعور وأسبابه، تعزوها إلى أن المرأة التي تحب- أو الرجل- على وشك الإفلات منك وأنت مهدد بفقدانها وتعلل الأحاسيس بالقول (لولا أن هناك ما ينذر بفقدان السعادة وحرمانني من الحبيب، لما كنت أشعر بما أشعر به) وعندما توحى إلى نفسك بهذا القول، يكون مثلك مثل الرجل الذي يعلل المشاعر المبهمة الأليمة في صدره بأنها من أمراض القلب أو مثل المرأة التي تعتقد أن ما تشعر به في ظهرها من آلام حادة من أعراض السرطان، أنك تشخص أحاسيس الجسم تشخيصاً خاطئاً وتعتقد بصحته وتتقبله قضية مُسلماً به.

وكلما استسلمت لهذا الاعتقاد اشتد شعورك عنفاً وأصبح الواحد للآخر ككفة الميزان للكفة الأخرى، وكلما زاد خوفك وعدم اطمئنالك زاد شعورك بعجزك عن ضبط نفسك، وبأنك سرعان ما تنفجر وتطير في الهواء. ومعنى هذا أنك تخاف من أحاسيسك المروعة الأليمة التي لا تفهمها لا من الأفكار التي تساورك بخصوص فقد حبيبك. أي أن

الإحساس والفكرة التي ربطتها به، قد أصبح الواحد شرطاً لظهور الأخرى وأصبح معك في كل حين، ونتج عن ذلك أن وجودك مع من تحب لا يشعرك بالارتياح التام، ولذا يشتد بينكما الخصام والجدل ويتهم أحكما الآخر بكل أنواع التهم وتساور كل منكما الريب والشكوك في كل ساعة من ساعات الليل والنهار.

وأياً كانت المسالك البرينة التي يسلكها صديقك أو صديقتك، فإنك تحملها على الدوام محمل الخديعة والكذب. في كل هذا تعتقد أن تعليك صحيح وأن منطقك سليم، في حين أن النتائج التي توصلت إليها مبنية على أسس لا نصيب لها من الصحة، وبذلك توشك أن تصل إلى حالة المصاب بداء (البارانويا)، أي الذي أصبح يعتقد اعتقاداً ثابتاً أن كل رجل في الدنيا يكيد له ويعمل لإيذائه ويرى الخطر محمداً به في كل ما يبدو من الآخرين نحوه من حركات وسكنات، وبذلك أصبح هذا الاعتقاد فيه بديهة لا حاجة للاستدلال على صحتها والشخص المصاب بداء (البارانويا) مجنون، وجنونه أشد أنواع الجنون خطورة ولكن قدرته على تحليل الأشياء تدل على نهاية الذكاء ولولا أن الوقائع التي بنى عليها نتائجه باطلة، لكان عمله سليماً دالاً على الذكاء والمقدرة.

إن المرأة والرجل الذي تبلغ به الغيرة حد الجنون وتدفعه إلى القسوة كارتكاب جريمة القتل هو الذي سلم بصحة آراء وصدق وقائع، هي في الحقيقة كاذبة، والذي حدا به إلى هذا أنه لم يتفهم طبيعة أحاسيسه.

ولا ريب أن الغيرة طبيعية والشعور بها أمر عادي إلى حد ما وهي مثل سواها من أنواع الخوف. فليس ثمة خروج عن المألوف أن يخشى إنسان فقدان شيء يقدره ويحبه، سواء أكان ذلك الشيء شخصاً أو وظيفة أو متاعاً. أما إذا بلغت الغيرة حد العنف والشدة وسيطرت الحساسية بها على العقل، فإنها تصبح حالة خفيفة من حالات الجنون.

والغيرة كسائر أنواع العصاب يشتد ساعدها بالتشجيع؛ فكلمة انغمس فيها المرء واستسلم لها ازدادت قوة وكلما ترك لها الحبل على الغارب، سيطرت على تفكيره وهدمت قدرته على ضبط أعصابه وتعليل الأشياء تعليلاً منطقيًا، ولهذا يعزى السبب في الكثير من جرائم القتل.

وللغيرة ترجع أغلب حوادث الطلاق وما يتمثل على مساح الزوجية من المشاهد الصاخبة والمآسي المخزنة التي لا تضر بالزوج والزوجة وحسب، وإنما تتعداهما إلى البنين والبنات.

ويتضح لمن يدرس نظرية هذه الحساسية وكيف تنشأ وتتطور، أن الغيرة ليست من طبيعة الإنسان وخلقه ولكنها صفة ضارة هدامة مكتسبة. إن الطفل لا يولد غيورًا ولا يرث الإحساس بها من والديه أو أجداده ولا يعقل أن أبًا أو أمًا ينقل مثل هذه الميول والنزعات المؤذية إلى ذريته. إن ما يمكن أن يتوارثه الطفل عن والديه جهاز عصبي شديد الحساسية سريع التأثر ولكل جهاز ضعيف مرهف الحس قابلية لاشتداد الشعور وتضاعفه وهذا أساس الغيرة.

وإذا فحص طبيب الأمراض العقلية الرجل الغيور فحصًا دقيقًا تبين له أن مرضه لا يقتصر على الخوف وحده، أي الخشية من فقدان الشيء أو الشخص الذي يحبه، وإنما يشمل فوق ذلك حدة الطبع ويغلب أن يكون قد ظهر عليه ذلك منذ نعومة أظفاره وأنه كان منذ سن مبكرة عنيفًا في حبه وكراهيته والغريب أن أمثاله يباهون عادة بشدة انفعالهم وسرعة تأثرهم؛ ظنًا منهم أن حدة الطبع دليل القوة والواقع أن العكس هو الصحيح. إن عنف الطبع دليل على ضعف الجهاز العصبي وهو ما لا يدعو إلى التفاخر أو ما يحسد عليه صاحبه، وعلى من يشعر به أن يسلم بهبوط الطاقة في الخلايا العصبية.

العلاقة بين الخوف والغيرة...

ولكي نفهم كيف يتحول الخوف أو توقع الخطر - وهو أول أعراض الضعف العصبي - إلى غيرة، نوجز قصة سيدة عرفت:

كان زواجها سعيدًا وكان زوجها لا يدخر وسعًا إلا ويبدله لإرضائها والسهر على راحتها، وكان بينهما نموذج الأناقة مستكملًا وسائل الراحة ولا يشغل بالهما في الظاهر هم ولا نصب. وكل ما توافر للزوجة من أطيب الحياة كان مما تحسد عليه كل امرأة. وبالرغم من ذلك، كانت على الدوام قلقة. لا بسبب شيء معين، بل بكيفية غامضة لا يمكنها تحديدها ولا تدري أين مصدرها؟ ولم يقل لها أحد أن الحمى التي أصابتها والعملية البسيطة التي أجريت لها بعد ذلك، تسبب عنها هبوط في طاقتها العصبية.

حقيقة أن هذا لم يبلغ درجة توجب شدة الاهتمام ولكنه كان كافيًا لإشعارها بشيء من الخوف وعدم الطمأنينة، وكثيرًا ما كانت تحاول أن تبحث عما عساه أن ينقصها في الحياة مما يسبب لها هذا القلق، فلا تجد له أثرًا. ولكنها كانت تقول في نفسها إن هذا الخوف لابد أن يكون إنذارًا أو تمهيدًا لحادث على وشك الوقوع وأن (غريزة) الأنوثة فيها أو فطرتها تحاول أن تنبئها بخطر لم يكشف عنه المستقبل بعد.

ثم لا تفتأ أن تتساءل عن معنى هذا كله وقد تظن امرأة سواها أنها ستصاب بمرض لم يكتشفه الطبيب بعد.. أما هي فتقول في نفسها: (إن هذا الذي أخشى وقوعه قد يكون له علاقة بزوجي، فقد تكون صحته على غير ما يرام)، ولكنها سرعان ما تتذكر أن الطبيب قد فحصه أخيرًا ووجد أنه في تمام الصحة، غير أنها رغم ذلك لا يزال الخوف يساورها - وكيف لا وجهازها العصبي ضعيف؟ - فتشرع في شحذ القرينة مستعينة بخيالها للوقوف على سبب الخوف، فيوسوس هاتف في أذنها أن زوجها يحتمل أن يكون متصلًا بامرأة سواها. فهناك تلك الشابة ذات الجاذبية الجنسية في مكتبه - إنه كثيرًا ما كان يتحدث عنها.. فلا يمكن أن يخفى على أحد أنه كان معجبًا بها. على أن ذكرها لم يجيء في سياق حديثه أخيرًا. فلماذا؟ هل معنى هذا أنه أصبح أشد اهتمامًا بامرأته وأكثر إعجابًا بها فسكت عن ذكر اسمها أمام زوجته لنلا ينكشف أمره؟!!

الغيرة إذاً كالشجرة يمكن أن تبدأ حبة ولا يلزم أن تكون الحبة كبيرة، طالما كانت التربة التي تقع عليها خصيبة. إن الخوف أو توقع الخطر الناتج

عن التعب كالسماد الذي يزيد الأرض خصوبة صالحة لهذا النوع من
الزراع.

وإذا لم تتخذ الوسائل العلاجية لإزالة هذا التعب فلا بد من أن يزداد
شدة ويزداد بسببه القلق والهـم والارتياـب ولا تخف وطأته حتى إذا تحديته
وحاربتـه طالما كنت لا تفهم طبيعته ونشأته وكلما زاد تعبك زاد خوفك
وتضاعفت شدة حساسيتك. تبيت يقظاً لكل ما يقال عنك فتحسبه
تعريضاً بك ويجرح إحساسك، وهذه الأسباب تفسر نظرات الغير أو
سلوكهم العابر بأنه كراهية لك أو استهزاء بك ويصعب عليك تركيز فكرك
في موضوع واحد- اللهم إلا في نفسك- وتتأصل فيك تلك الفكرة التي
تُشغل بالك.

بهذا تستسلم لليأس من الحياة، تقول لنفسها إنها لم تعد في عنفوان
الصبا وتشكو من التعب فتمتـع عن الذهاب للحفلات لعجزها عن
الظهور بمظهر المرأة المرححة البشوش.

ولا تريد ارتداء ملابسها الجميلة التي كانت تتباهى بها ولم تعد ترغب
في شراء حاجاتها كعادتها لأن ذلك يزيد شعورها بالتعب. ولا يخفى عليها
أنها تنحدر تدريجاً إلى أسفل السلم وقد تلوم نفسها على هذا الاستسلام
للريبة والإذعان للشك ولكنها لا تجد سبيلاً للكف عنهما. ولا يزيدا هذا
إلا شقاءً وهماً.. هذه هي الحالة التي يكون فيها المرء فريسة رأي ثابت.

وبهذا يتطور الوضع إلى عصاب خطير هو عصاب الغيرة.. (فحذار من
الوحش ذي العيون الخضراء).

وقد أبدع شكسبير في روايته الشهيرة (عُطيل) في وصف عقل نبيل
أضنى أعصابه التعب، فقتلته الغيرة ويرسم لنا عُطيل لوحة فنية لما لاقاه من
المتاعب بعد عودته من ساحة القتال في قوله: (حروب وحصار وكوارث
مروعة مررت بها.. حوادث خاطفة من سيل جارف وقتال عنيف.. عهود
تكسر وجنود تقع في قبضة عدو نذل وتؤسر وتباع في سوق الرقيق). وفي
طب الأمراض العقلية الحديث حالات لا حصر لها للأمراض التي تتسبب
من صدمات الحروب وأثرها في إتهاك الجهاز العصبي.

ويذكر لنا عُطيل كيف أن (ديدمونا) افتتنت بهذا الوصف الرائع
والمغامرات التي قام بها في ساحة القتال فقال: (أحبتي لما لاقيته من
الأخطار وأحببتها لما لقيت فيها من عطف!..).

بيد أن تلك المغامرات المثيرة - برًا وبحرًا - وتلك الحروب الطاحنة
والحوادث المروعة، كان لها عميق الأثر في جهاز عطيل العصبي.. كان حبه
(لديدمونا) نبيلًا ولكن عقله كان سريع التأثر بسموم (ياغو) - ذلك الوغد
الخبث - وما كان يسره في أذنيه وقد مهدت متاعب عطيل السبيل
(لياغو)، فصادف مرتعًا خصيبًا للوشاية والدسياسة، وما كاد (ياغو) يوحى
إليه بالفكرة حتى أنشبت أظفارها فيه وأصبحت جزءًا منه وما أن ثبتت

أقدامها حتى تضخمت وكبرت فأصبحت غرة وحشية فتكت بحبه
(لديدمونا) ثم قضت على حياتها وحياته!

وقد ظهرت في أمريكا رواية سينمائية حضرها ملايين من الناس في
طول البلاد وعرضها، خلاصتها أن بطل الرواية- وقد كان ممثلًا مسرحيًا
يقوم بدور عُطيل (مغربي البندقية)- بلغ منه التأثر بدوره، أنه ليس
شخصية عُطيل بكل ما فيها من تصديق للوشاية واستسلام للدسيسة
والإصابة بذلك الداء الوبيل: الغيرة وقد كان كلما قام بتمثيل هذا الدور
في المسرح يخشى أن يصبح شعوره التمثيلي حقيقة واقعة، فتحققت مخاوفه
وأخذت الفكرة تتأصل فيه وقد انتهى به الخوف- وهو بلا شك دليل
ضعفه العصبي- إلى وسواس مأساة قضى فيها على حياته.

وقلما قرأ صحيفة يومية في أثناء الحروب أو بعد أن تضع أوزارها،
حتى نقرأ عن مآسي الجنود القدماء الذين يصابون بوسواس الغيرة فيقدمون
على قتل زوجاتهم. إن أحوال الحروب تضعف الطاقة في جهاز الجندي،
فتهبط إلى درجة يسهل فيها وقوعه فريسة للأفكار الثابتة ونظرًا لقلقه
وسرعة تأثره وعنّف أحاسيسه وعصبية مزاجه، تصبح حياة الزوجة معه
مستحيلة، إذ لم يعد ذلك الرجل الذي تزوجته وعرفته قبل الحرب ومن
السهل أن تتوالى الأحداث والملابسات حتى تتطور إلى غيرة قاتلة تخنم
فصول الرواية فيها بجرمة القتل.

الغيرة قابلة للشفاء..

لقد اتضح مما سبق أن الغيرة لون من ألوان الخوف ولا تختلف في شيء عن غيرها من المخاوف المرضية التي وصفناها وتستجيب للوسائل العلاجية التي يستجيب لها سواها.

ويسهل كسر شوكة هذا العصاب إذا أحسن الطبيب تشخيص المرض وعلاجه قبل أن يتمكن من المريض ويستفحل ولا يتم هذا إلا بتمييز أحاسيس المريض عن سواها. إنها أحاسيس بدنية عادية ولكنها قوية، عنيفة، أليمة، تضطرب لها حياة المريض اليومية. إنها إنذار بتوتر الخلايا العصبية، فمتى أدرك المريض ذلك كان لزاماً عليه الوقوف ضدها وأن يردد لنفسه: (أن هذا الشك الذي يساورني لا أساس له) ويأبى أن يرضخ له أو أن يتوهم أن الشخص الذي يحبه على وشك الإفلات منه، في وسع الغيور أن يعيد المياه إلى مجاريها بغير الالتجاء إلى الطبيب إذا سارع إلى تجديد طاقته بالراحة والاستحمام والوسائل التي سبق تفصيلها قبل أن تهبط إلى درجة تستوجب علاج الطبيب وتندر بالخطر.

إن علاجي المريض المصاب بداء الغيرة لا يختلف عن علاجي لسواه من المصابين بالمخاوف المرضية. أطلب إليه قبل كل شيء أن يقص علي سيرته، حتى أبين له أثر البيئة وحالته الصحية وعمله وعلاقته بأفراد أسرته وما إلى ذلك، على حالته البدنية والعقلية ويسلم كل غيور بأنه كان حاد الطبع طول حياته ويدل الفحص على أن هناك أعراضاً أخرى فيه تدل

على ضعف جهازه العصبي، هذه كلها أشرحها للمريض ثم أبين له أن غيرته وثيقة الارتباط بأحاسيسه وأنه يمكن تخفيف وطأتها أو التخلص منها كلية؛ فالمرضى نفسه هو الذي ربط في ذهنه بينها وبين خوفه من فقدان من يحب وبهذا تتكون الغيرة.

ومن هذه النقطة يبدأ علاج المريض طبقاً لنظام موضوع.. يتعاطى الدواء الذي يرفع الطاقة في الجهاز العصبي ويشجع على عدم الرضوخ لأحاسيسه بل يعمل ضدها. وبفعل الدواء يجد أنه كفاء لذلك وعندما يقف وحي القتال بينه وبينها، يتجدد جهازه العصبي ويقوى.

وفي الوقت الذي يعالج فيه بالدواء لتقوية أعصابه، يعالج كذلك نفسائياً بتربيته من جديد حتى يفكر تفكيراً سليماً. ومتى ثبتت في ذهنه حقيقة الغيرة- أي أنها في أحاسيسه لا في نظامه الفكري- يشجع على تكوين مُثل جديدة في الحب أسمى مكانة وأصدق. وبذلك يدرك أن الحب ليس ملكية وأن الحب السليم الصحيح يتطلب الثقة في المحبوب ومنحه نصيبه وحقه من الحرية.

الحب العنيف..

إن الأفكار التي تساور صاحبها لا تلد غيرة إلا إذا غذَّها الخوف وعدم الطمأنينة كما رأينا.. بيد أن هذا ليس معناه أن كل شخص عُرضة للمخاوف والشعور بعدم الاطمئنان تكون الغيرة طبيعة فيه.. إذ يشترط فوق الخوف والشعور بدنو الخطر- وهما غذاء الغيرة- أن يكون حب

الغيور كحب عطيل في رواية شكسبير.. حبًا عنيفًا ولكنه خالٍ من الحكمة.

الحب من أهم الدروس التي ينبغي لكل امرئ أن يتعلمها ويأخذ بناصيتها حتى يعيش سعيدًا، منتجًا. وليس كل إنسان يولد مُلمًا بهذه الدروس بالفطرة فيعرف كيف يجب حبًا صحيحًا. ولكن في وسع كل إنسان أن يتعلمها كما يتعلم السباحة أو الرماية، طالما كانت له الرغبة الصادقة في تكوين خلقه وشخصيته.

ولا يولد أحد بالفطرة عُرضة للغيرة بسبب ضعف جهازه العصبي. وفي وسع كل مخلوق أن يتحصن ضد الغيرة، كما في وسعه أن يتحصن ضد حمى التيفود أو التيفوس أو أي مرض آخر خطير. ومتى توافرت لديك المناعة وتعلمت دروس الحب، فأصبح رائد حبك الحكمة، فإنك مهما أهلك التعب قواك وبلغ منك الخوف ومهما استسلمت لليأس، فإن الحسد لن يعرف إلى قلبك سبيلاً.

في وسع الطبيب الذي يفهم طبيعة الجهاز العصبي أن يعالجك بالدواء حتى تتخلص من التعب الذي تسبب عنه ضعف الطاقة، وإذا كان طبيبًا نفسيًا كان في وسعه أن يزيل عنك وسواس الغيرة. والطبيب أو أخصائي الأمراض العصبية أو الكاهن الذي يحاول علاج المريض بالكلام وحده وبدون دواء، يكتب عليه الفشل. نعود مرة أخرى إلى موضوع الحب، فنقول إن صفة الحب لا تقاس بشدتها وعنفها بل بدرجة ما تسمح لنفسك

فيها من معنى الملكية.. فإذا كنت تقدر حقيقة حريتك العقلية وتعمل على تقويتها، كان لزامًا عليك أن تحب مَنْ تُحب، بشرط ألا تعرض حريته للخطر أو الأذى. فمن حقوق الإنسان المقدسة حريته ومن حق كل فرد أن يكون (هو) نفسه. وينبغي أن نحرض على هذا الحق حتى فيما يتعلق بمن نحب. لكل فرد في الوجود- حتى من نحب- أن يكون له حق الحرية وحق الاحتفاظ بجانب من أسراره ورعاية شؤونه الخاصة. وليس الحب مبررًا للتعدي على هذه الحرية والحرمان من هذه السرية. الواقع أن الحب الصادق الصحيح لا يسمح لنا أن ندوس على هذه أو نتجاهل تلك، ولن نتعلم فن الحب الصحيح من الشاشة البيضاء؛ فمن أقوى العوامل التي تعطي الناس فكرة خاطئة عن الحب (الرومانسية) وعلاقة الجنسين بعضهما ببعض كما تبدو في السينما. أنها وما يذاع من محطات اللاسلكي من الأغاني الرخيصة والروايات المبتذلة يوميًا، تترك في العقول الناشئة التي لم تنضج بعد آثارًا هدامة، فيظنون أن الحب يقاس بمقدار سيطرة الحبيب على حبيبه.

لقد أثبتت الأبحاث والدراسات الاجتماعية أن في مقدمة الأسباب التي تؤدي إلى الطلاق وهدم الأسر، افتقار الزوجين إلى النضوج قبل الإقدام على الزواج. إن أرث الحرية الذي تنوق إليه كل أمة وكل فرد، لا يتوافر إلا متى تعلم الناس كيف يحبون وكيف يحبون بحكمة لا بعنف، وكيف يحترمون حرية الحبيب وسريته، وتعبير آخر كيف يبلغون درجة من النضوج البدني والعقلي والاجتماعي والوجداني، تكفل سعادته الزوجين أو المتحابين.

قصة فأر..

هذه قصة مريضة جاءت تشكو لي من آلام معدية شخصها الأطباء أنها عقلية، ولولا أن حالتها التي ستصفها بالتفصيل جديرة بالاهتمام، لكانت مصدرًا للفكاهة والتسلية:

(لقد علمت من جميع الأطباء الذين استشرتهم أن معدتي خالية من المرض وقد جاءت نتائج جميع الفحوص سلبية، إذ لم يظهر فيها ما يدل على أن سوء الهضم وفقدان الشهية والضعف العام يعزى إلى علة بدنية وقد نصح لي الأطباء أن أنسى معدتي وألتزم الراحة وأكف عن التفكير في نفسي. وأنى لي ذلك إزاء هذه الأوجاع المبرحة التي أشكو منها؟).

وقد فحصت هذه السيدة جيدًا فتبين لي صحة أقوال الأطباء، وتأكدت من أن ما يبدو عليها من ضعف وعصبية مزاج وما يبدو في حديثها من هستيريا منشأه عقلي. واتباعًا لطريقتي في العلاج وقمت على سيرة حياتها في خلال السنوات الماضية فعرفت أنها سيدة أمريكية انحدر والدها من سلالة إسبانية كاثوليكية المذهب وقد كانا محافظين في تقاليدهما، فشببت ابنتهما على التربية الدينية الدقيقة وظل والداها يشددان الرقابة عليها والعناية بها وملاحظة كل حركاتها وسكناتها في البيت والمدرسة، في خروجها ودخولها، حتى لم يبق لها منفذ للحرية ولم تعد تعرف معنى للسرية.

ولما بلغت العشرين من عمرها تزوجت، فذاقت لأول مرة في حياتها معنى الحرية والاستقلال الذاتي وتنفس الصعداء ولكن هذا لم يدم طويلًا،

إذ سرعان ما أزعجتها هذه الحرية وذاك الاستقلال اللذان لم تعهدهما من قبل. فلازمت زوجها كالظل وأصبحت لا تشعر بالطمأنينة إلا إذا كانت معه وأيقنت أنها موضع اهتمامه.. أي أنها عادت إلى بيتها الأولى التي كانت لا تشعر فيها أنها مستقلة عن أمها وأبيها أو تحس أنها في مأمن من الخطر إلا إذا كانت في كنف من تحب (والديها). وبعد قليل حملت ووضعت طفلاً، تعسرت في ولادته وكان الطفل سبباً في همها لأنها كانت تخشى عليه دوماً من كل وعكة أيّاً بلغت تفاهتها وتضاعف همها عند قيام الحرب العالمية الثانية وعلمها أن زوجها سيستدعى حتماً للجنديّة وهنا نترك المريضة تتحدث عن نفسها.

(طفقت أترقب البريد يوماً خشية أن أجد رسالة من مصلحة التجنيد، لعلمي أن زوجي كان شديد الرغبة في خدمة وطنه، مما حدا بي إلى أن أفخر به. على أن مجرد التفكير في هذا كان يمزق نياط قلبي، لعلمي أن الجنديّة معناها التغرب والتعرض لمخاطر القتال، فكنت أصلي داعية أن تضع الحرب أوزارها قبل أن يُدعى زوجي).

(أخيراً وقع القدر المحتوم. فسافر زوجي إلى معسكر تمهيداً لإرساله إلى الميدان، أما أنا فأخذت طفلي ورحلت إلى حيث يقطن والدي ولما بلغت بسفر زوجي إلى ما وراء البحار، انفطر قلبي حسرة ونقص وزني عشرة أرتال بعد بضعة أيام. ولم أجد سبيلاً إلى النوم أو الأكل وأصبح ذهني موزعاً بين خوفاً من أن يستشهد زوجي وبين مصيري إذا ما حدث ذلك. وكنت أذهب لكنيسة يومياً وأدعو الله أن يعود إليّ سالماً. وقبل

سفره تحدثت معه طويلاً وأخذت عليه عهداً ألا يقول لي عند عودته من أوروبا شيئاً عن مغامراته مع النساء هناك أو ما يشتم منه ذلك، مهما كانت الأحوال ولم أطلب منه أن يكون أميناً لي بل لم أنتظر منه ذلك. وقد احتج على حديثي هذا مؤكداً لي أنه يجني ولا يمكن أن يفكر في سواي أو يخطر بباله خيانتني وبرغم تأكيدته واحتجاجي أصررت على أقوالي وألححت عليه أن يقطع لي عهداً بالأبداً ييوح بشيء مما يحتمل حدوثه).

(وقد استجاب الله لصلواتي، فعاد زوجي من ميدان الحرب في أوروبا بعد عامين سالماً ولم يصب بأذى. وكان كل شيء يُنبئ بحياة زوجية سعيدة من جديد فأخذت أبحث عن بيت لائق، لاسيما بعد أن تحسن مركز زوجي في الشركة التي استأنف عمله فيها، وقد توصلنا أخيراً إلى العثور على (شقة) ليست ما كنا نرومه وليست في حي من الأحياء التي تعودنا السكنى فيها. ومع ذلك فقد سررنا لاستئناف حياتنا الزوجية..).

(وكان ابني موفور الصحة، ذكياً نشيطاً، فكنت أقضي أكثر الوقت في العناية به والخروج معه إلى الحدائق والمنتزهات العامة، فضلاً عن عملي المنزلي الذي كنت أحاول فيه أن أجعل البيت جذاباً أنيقاً يسر له زوجي. ولم يخامرني شك في حب زوجي لي وإخلاصه، ولم أدع لذهني مجالاً للشك في أمانته لي أو التفكير في نساء يحتمل أن يكون قد اتصل بهن أثناء خدمته العسكرية في أوروبا، ولا يخفى أننا كنا ولا نزال نسمع الكثير من الشائعات ومن قصص الجنود الذين كانوا يولعون بالفتيات النمساويات والإيطاليات مؤثرين الزواج منهن بعد تطبيق زوجاتهم. وحدث مرة أن ساق الحديث

زوجي إلى ذكر وفائه وعدم خيانتة، فقطعت عليه الحديث توا وذكرته بالوعد الذي قطعه على نفسه، وكررت عليه قولي بأني لا أريد أن أسمع شيئاً عما حدث له في غربته، وقلت له إنه يحتمل أنه كان أميناً أو خائناً ولكن في كلتا الحالتين أوتر ألا أعرف شيئاً..).

(كان كل همي منحصراً في إسعاده، مركزة في شخصه أكثر من ذي قبل. كل جهدي موجهاً إلى توفير الراحة البيتية والسعادة الزوجية له حتى يواصل حبه ودوام ولعه بي).

(ولكن.. ما لبثت أن شغلت بصحته، وقد عاد الآن من الميدان. وكنت أقول لنفسي: إلى هنا كان السعد حليفنا، فهل يدوم؟ هب أن حادثاً- والحوادث محتمل وقوعها في كل حين- هب أن سيارة صدمته أو أنه أصيب في حادث قطار أو انفجار.. وهكذا أخذت هموم هذه الاحتمالات تشغل بالي).

(وكنت في الساعة الخامسة من كل يوم أجلس إلى النافذة انتظاراً لرؤية زوجي في الشارع قادماً من عمله وكان هذا موعد تقديم العشاء لابني وحمله إلى فراش النوم. ولكن كان لا يروق لي أن أفعل شيئاً من هذا قبل أن أتأكد من سلامة زوجي ورؤيته بعيني قادماً نحو المنزل. وذات يوم رأيتة يدور حول المنحنى المؤدي إلى المنزل وصليت صلاتي القصيرة التي اعتدت تأديتها يومياً بهذه المناسبة. وعددت الدقائق ريثما أسمع خطواته فوق السلم ودخوله وأخذه إياي بين ذراعيه. على أن الدقائق طالت وامتدت في

ذلك اليوم ولم يدخل بعد، بالرغم من أنني رأيته بعيني وسمعت خطواته على السلم فاستولى عليّ ذعر شديد وفتحت الباب لأرى ما عساه أن يكون قد حدث، وانخبت فوق (الدرازين) المطل على السلم وأخذت أسمع. سمعت وقع أقدام، ثم لم ألبث أن سمعت باب (الشقة) التي تحتنا مباشرة يفتح وصوت امرأة ينبعث منه قائلة: (لا أستطيع أن أفبك من الشكر حقك..) وسمعت صوت زوجي يجيئها ويصعد إلى فوق).

(ماذا كنت تفعل في بيت السيدة ص؟ هذا هو السؤال الذي بادرت به. وكان جوابه الضحك وقوله: (لا تكوني غيورة) فاحتججت على قوله وأفهمته أنني لست غيورة ولكن أريد أن أعرف.. فأجابني وهو يواصل الضحك: (إن السيدة ص خرجت من شقتها وأوقفتني راجية إياي أن أؤدي لها خدمة. كانت قد نصبت شرًا في مطبخها ووقع فيه فأر لم تعرف كيف تتخلص منه. فأجبتها إلى طلبها).

(هذه حادثة تافهة ولكن لا سبيل لي إلى نسيانها، إذ لا أفتأ أن أحدث نفسي قائلة: قد تكون هذه حيلة تدرعت بها السيدة (ص) لحمل زوجي على دخول بيتها. أنها لم تعرني يومًا ما التفاتة ولم تتعرف إليّ. أنها أرملة تعيش بمفردها. وكان زوجي حسن المنظر، ومن ثم أخذت أفكر في أمر ذلك الفأر. هل كان ثمة فأر حقيقة؟ إن زوجي لا ينتظر مني أن أوجه إليه مثل هذا السؤال. لقد كررت عليه القول إنني لن أناقشه في مثل هذه الأمور، واحتججت مرارًا كي أمنعه من التفوه بكل ما يتصل بعلاقاته مع غيري من النساء وبث الليل كله أدير هذه الأقوال في رأسي، فلم أذق

طعم النوم أو الراحة ولم أقل شيئاً لزوجي عن ذلك في اليوم التالي، ولكنني أخذت أراقب السيدة ص عن كثب وعندما لمحت من النافذة زوجي وهو في طريقه إلى المنزل هرعت إلى مدخل الشقة، لأتسمع وراء الباب وأرى إذا كان يمر ببنت السيدة (ص) أم أنه يصعد تَوًّا إلى شقتنا وبالرغم من أنه لم يمر عليها، فإن ذلك لم يشف غليلي كما كان يتوقع. فقد واصلت التفكير فيما حدث في اليوم السالف وفيما إذا كان زوجي قد كذب عليّ في مسألة الفأر وشدت الرقابة على جارتنا (ص)، ولم أكتفِ بذلك بل أخذت أراقب زوجي كلما خرجنا سوياً؛ لأرى إذا كان يُغازل امرأة أو أن امرأة تغازله وقد ملأت كل هذه الأفكار وأمثالها رأسي).

ومن هذه المرحلة التي وصلت إليها مريضتي، أخذت تبدو على حالتها البدنية آثار الهبوط في جهازها العصبي؛ نظراً إلى تلك الفكرة الثابتة التي تأصلت فيها وترتب على هذا أن اشتد الأرق عليها وقلت قدرتها على هضم الطعام وتضاعفت آلامها وضعفت شهيتها للأكل وأقعدتها التعب عن العناية ببيتها وولدها. لقد استنفدت طاقتها الأفكار وأهك قواها وسواس الشك في زوجها، ولازمتها فكرة الخيانة واحتمال اتصاله بغيرها من النساء وبذلك أصبحت الغيرة مصدر عذاب وهمٍّ وشقاء. ولم يعد الدين - وقد كانت شديدة التمسك به - وازعاً لها ولم يعد حبها لولدها وبيتها كافياً لإنقاذها من أنياب الغيرة الخبيثة التي كانت تنهش في جسمها وتفتك بعقلها.

هي الغيرة الحبيثة التي كانت سبب تشنجاتها المعدية واضطراباتها الهضمية التي أنهكت جهازها العصبي فجاءت لاستشارتي.

ولما أن شرحت لها ذلك فهمته جيداً.. غير أن مجرد الفهم لا يشفيها من عللها البدنية ولا يريح عقلها من الوسواس المزعجة التي كانت لا تفارقها. كان لابد أن تعالج أولاً بالدواء الذي يريح الخلايا العصبية من شدة تهيجها ويجدد طاقتها، وبذلك يزيل عن المريضة أفكار الشك التي تسم عقلها والخوف- وهو التربة التي نمت فيها الغيرة وترعرعت. وكان لابد أن يصحب هذا العلاج النفساني ويتلخص في إعادة تربية المريضة تربية جديدة، لاسيما فيما يتعلق بالحب، وتعليمها أن الحب ليس معناه التملك وكان هذا أصعب الدروس التي علمتها إياها؛ لأن درس الحب الذي تلقته من والديها لم يكن ألا تملكاً إلى أقصى ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ.. كذلك لم تكن (مدة التمرين) في الزواج أفضل من السنوات التي قضتها مع والديها لأن الحب في خلالها كان كذلك مرادفاً للملكية.

وقد احتاج علاجها أربعة شهور نالت في نهايتها الشفاء وظلت كذلك إلى كتابة هذه السطور؛ لأن التعب الذي كان ينهك قواها قد زال ووسواس الخيانة لم يبق له أثر، وأخيراً لأن الحب عندها أصبح متصفاً بالحكمة لا بالعنف.